مصطفح الفقحي

الدولة المصرية والرؤية العصرية

من فقه المراجعة إلح فكر المستقبل



دار الشروق

مقدمــة

بعد أن أفردنا «لمحنة أمة» كتابًا في العام الماضي فإننا نقدم هذا الكتاب الجديد تحت عنوان (الدولة المصرية والرؤية العصرية) في مناقشة موضوعية لمسألة الإصلاح وقضايا التحديث وكلها تمثل عاملاً مشتركًا بين الأقطار العربية والإسلامية بل والمجتمعات النامية بوجه عام، ويهمني أن أسجل في البداية أنه قد يحتدم الخلاف السياسي بين أبناء الوطن الواحد وتختلف التوجهات الحزبية حول القضايا التي تهم الشعب ومستقبل أجياله القادمة ولكن المهم دائمًا ـ قبل ذلك كله ـ أن يكون الخلاف، مهما اتسعت هو ته وزادت حدته، واقفًا على أرض وطنية ورابضًا على ثوابت لا ينبغي التفريط فيها أو التنازل عنها، أقول ذلك وعيني على مصر ـ الوطن والشعب ـ فقد لاحظت في السنوات الأخيرة أن الشعور بالانتماء لدى قطاع من الشباب يبدو سطحيًا أحيانًا وهامشيًا أحيانًا أخرى ، مع أننا لو استعرضنا تاريخ الحياة السياسية المصرية لوجدناه مطابقًا لتاريخ الحركة الوطنية، فحزب «الوفد» مثلاً في الفترة الليبرالية بين الثورتين 1952 - 1919 لم يكن يجسد فقط شعارات الوحدة الوطنية والسعى نحو الاستقلال التام واحترام دستور 1923 ، ولكنه كان يتجاوز ذلك لكي يكون وعاء كاملاً للحركة الوطنية بكل أطيافها حتى جرى تلقيبه «بالثوب الفضفاض» الذي يحتوى تيارات متعددة تحت مظلة المصلحة العليا للوطن، ونحن مستعدون الآن لقبول الحوار الحروالرأى المخالف، بل وأيضًا الشطحات الفكرية والمبادرات السياسية بشرط أن نكون جميعًا فوق أرضية واحدة نقف عليها ولا نحيد عنها وأعنى بها الأرضية الوطنية، ولعلى هنا أفرد بوضوح ما أوجزته في السطور السابقة، إذ إن ظهور فكر العولمة والتقدم المذهل في تكنولوجيا المعلومات والسرعة الهائلة في وسائل الاتصال قد أفرزت في مجملها ذلك النوع الجديد من المواطن الذي قد لا يتمسك بالثوابت، ولكن يمضى وراء مجتمع إنساني واسع سقطت فيه الحواجز وتلاشت منه الحدود، خصوصًا وأنه مع انهيار مبدأ السيادة المطلقة للدولة فإن المشاعر الوطنية يمكن أن

تكون قد اهتزت لدى بعض الأجيال الجديدة بحكم الانبهار بنمط الحياة في مجتمعات أخرى أكثر تقدمًا، كما أن التداخل بين السلطة والثروة قد أدى إلى حالة من الميوعة الوطنية والأخلاقية أيضًا، فالسلطة ترتبط بهيبة الدولة، أما الثروة فلا وطن لها لأنها تسعى بامتدادتها وتنساب بأموالها وتتحرك وفقًا لمصالحها دون اعتبار ـ في الغالب ـ للمشاعر الوطنية أو المواقف القومية، وقد تدفع أصحابها أحيانًا إلى الوقوف على أي أرضية لأن المصالح الفردية تطغى والأهداف الذاتية تسيطر، كذلك فإن الحس الوطني يرتبط بالاهتمام بالعمل العام والرغبة في خدمة المجتمع وهي مظاهر بدأت تتراجع في السنوات الأخيرة بفعل انحسار الأحلام القومية وتوالى الهزائم السياسية والعسكرية وتبدل الخريطة الدولية بين الأصدقاء والأعداء، فضلاً عن الفوضى في الأوضاع الإقليمية والإحباط الذي أصاب الأغلبية الساحقة من شباب هذا العصر، وليس من شك أن غياب الرؤية السياسية الواضحة تعنى اختفاء النوتة الموسيقية التي تحرك عازفي الأوركسترا في توافق بين النغمات وانسجام بين الآلات، وإلا أصبح اللحن نشازًا لا يعبر عن هوية متميزة أو شخصية مشتركة أو قيمة يمكن الالتفاف حولها والإيمان بها والدفاع عنها، وماكان يسميه أستاذ العلوم السياسية الراحل د. «حامد ربيع» ـ الذي كان في حد ذاته موسوعة متنقلة في الفقه السياسي الغربي والإسلامي معًا على نحو منقطع النظير ـ «بالدولة الكفاحية» كان يعني بها تلك التي تملك مشروعًا وطنيًا جرى حوله توافق عام وسعى مشترك ورغبة طوعية من كل القوى السياسية والاجتماعية. ونلاحظ في السنوات الأخيرة أن شحوب الدور الوطني ونقص المشاركة السياسية قد أديا إلى نوع من اللامبالاة وضعف الانتماء اللذين أديا بدورهما إلى تراجع الولاء، ولعلى أكون منصفًا هنا فأقول إن ذلك جزء من ظاهرة عالمية لا يمكن تجاهلها أو إغفال تأثيرها، فالأجيال الجديدة لا تحمل على كواهلها ما حملته أجيال سابقة من مطلب الحرية ومسعى الكرامة والنضال من أجل غايات تطلعت إليها شعوب كثيرة في القرن الماضي.

. . وإذا انتقلنا ـ قياسًا على ذلك ـ إلى تطبيق تلك الأفكار العامة على مصر . . فإننا نقول إن العصور البارزة في التاريخ الحديث بدأت من العهد الملكى ثم عهود «عبد الناصر» و «السادات» و «مبارك» على اعتبار أن فترة حكم «محمد نجيب» هي فترة قصيرة وفاصلة بين عهدين ، ولم يكن فيها ذلك «الجنرال» الطيب القلب صبور الشخصية مطلق اليد أو حر الإرادة ، وسوف نكتشف أن حكام مصر كانوا يقفون دائمًا على أرضية وطنية ،

فالأسرة العلوية التي بدأت بمحمد على وانتهت بفاروق لم تعرف نموذجًا صارخًا للخروج على الوطنية المصرية باستثناء الخديو «توفيق»، وحتى «فاروق» نفسه والذي قامت ثورة 1952 للإطاحة به كان ملكًا فاسدًا ولكنه لم يكن حاكمًا خائنًا، فكراهيته للاحتلال البريطاني معروفة وارتباطه بالوطن المصرى كان مؤكدًا، أما «عبد الناصر» فمثله مثل «أحمد عرابي» ابن للعسكرية المصرية التي قدمت لهذا الوطن دائمًا أفضل ما لديها وأسهمت في الحركة الوطنية والدفاع عن الأمن القومي على نحو نادر في تاريخ الشعوب، و«عبد الناصر» فوق هذا وقبله قامة قومية عالية وطراز وطني فريد قد تكون له أخطاؤه الكبرى مثلما كانت له إنجازاته الكبرى أيضًا، ولكنه وقف على أرضية وطنية بل وقومية حتى النفس الأخير من حياته، أما «السادات» الذي يعتبر «رجل دولة» من طراز فريد فإنه قد وقف دائمًا منذ مطلع حياته وصدر شبابه على أرضية وطنية مصرية صلبة، يكفي أن يتذكر القارئ أن «السادات» كان عضوًا في تنظيم «الضباط الأحرار» مع ارتباط بما سمى بمجموعة «الحرس الحديدي» الموالي للملك في نفس الوقت، ولكن ولاءه كان بغير جدال مع الحركة الثورية في الجيش ولم يخن يومًا وطنه ولا أمته، حتى رؤيته للعلاقة بين العرب وإسرائيل كانت اجتهادًا سياسيًا من زعيم يعرف المتغيرات الدولية والتطورات الإقليمية ويلعب ببراعة عليهما، وعندما جاء «مبارك» إلى السلطة فقد كان وراءه رصيد طويل من التاريخ العسكري المشرف، فقد بدأ السلم من بدايته ووصل إلى نهايته مشاركًا في كل حروب مصر في النصف الثاني من القرن العشرين فضلاً عن دوره الفريد في حرب أكتوبر 1973، وتربيته المباشرة للكوادر الباسلة من ضباط القوات الجوية المصرية، ولقد عملت شخصيًا على مقربة منه قرابة سنوات ثمانية ورأيته يضع يده على الخيار الوطني في كل المواقف وينحاز للمصلحة العليا لمصر بغير تردد، فذلك كله جيل رفيع القدر واضح الغاية من أبناء مصر الذين وقفوا دائمًا على أرضية وطنية أمام كل التحديات وفي كافة الظروف، ومصر الإصلاح والتنوير بعد ثورة التحرير تتطلع إلى كل أبنائها من الأجيال الجديدة لكي يواصلوا الطريق ويحملوا الشعلة، موقنة أن انتماءهم لمصر الوطن والأرض والشعب سوف يعلو على سواه، وأن جذور الوطنية المصرية سوف تمتد فيهم برغم الظروف الدولية المختلفة والأحوال الإقليمية المضطربة والفوضي السياسية التي تسود عالم اليوم، ولا شك أنهم سوف يكونون على وعي كامل بألام الكادحين ومعاناة الفقراء ودراية صادقة بآمال الشعب ـ كل الشعب ـ وأحلامه وأمانيه ، لأنهم سوف يقفون بالضرورة على أرضية مصرية وعربية لا تنال منهم تيارات وافدة أو مواقف عارضة أو حسابات متشابكة أو أهواء شخصية أو مصالح فردية ، فمصر دائمًا أمة منجبة قدمت للمنطقة تنوير «الطهطاوى» و «محمد عبده» ، وجهاد «عرابي» و «مصطفى كامل» ، ووطنية «سعد زغلول» و «مصطفى النحاس» ، ونضال «عبد الناصر» و «السادات» و «مبارك» ، وسوف يمتد الطريق و تتواصل سلسلة الزعامات المصرية الوطنية التي لا يرضى الشعب عنها بديلاً ولن يعرف غيرها أبدًا ، إننى أبغى من هذه المقدمة تمهيد الأرض المشتركة للبحث في موضوعات دولية وإقليمية ، خارجية و داخلية ، ولكن يجمعها كلها رابط أساسى وقاسم مشترك ، هو أنها تصب في خانة المستقبل الذي نتطلع إليه ، والمجتمع الذي نريده ، والغد الذي نترقبه للأجيال الوافدة في موجات بشرية دافقة تطلب الحياة المستقرة ، والأمن الدائم في إطار رؤية عصرية لشعوب المنطقة العربية بغير استثناء .

د. مصطفى الفقى

يناير 2005



الدولة المصرية والرؤية العصرية

... إن الدولة العصرية الحديثة تقوم على سيادة القانون، وتعتمد على مصداقية الحكم ووضوح الرؤية. بينما يؤدى تسلل الثروة نحو مراكز السلطة إلى حدوث شرخ ينال من هيبة الحكم ويسمح للشائعات اليومية بأن تغتال الأمل لدى الأجيال الصاعدة وأن تمارس آثارها السلبية في حياة السواد الأعظم من جماهير الشعب وقواعد المجتمع. فالدولة المتحضرة التى تعرف عناصر الديمقراطية وتحترم القانون لا تقع في مستنقع الخلط بين من يملكون ومن يحكمون، ولكنها تضع من الضوابط والقيود ما يجعل العلاقة بينهما صحية وسوية مع قيام أطر معاصرة للحدود الفاصلة بينهما...



